إعادة كتابة التاريخ.. ثانية

حسين محمد عجيل

في عام (1977) طرح صدام ما سماه (إعادة كتابة التاريخ)، ولأن الحاضر الذي عاشه العراق في تلك المرحلة كان قد حوصر، وضيق الخناق على القيادات السياسية والفكرية والأدبية والأكاديمية عموماً لمغادرة ساحات فعلها المؤثر، بانتظار مجازر من نوع آخر بعد اعتلاء صدام سدة الحكم رسمياً سنة (1979)، ولذلك فإن هذه العودة لإعادة كتابة التاريخ وفق النظرة (العبثية) كان الهدف منها طمس الماضي بعد إنجاز المهمة العاجلة المتمثلة بطمس الحاضر.

وما إن انفرد صدام بالسلطة بدأ بتطبيق مشروعه لتزييف التاريخ على أوسع نطاق، بعد أن أمضى وقتاً طويلاً في تهيئة أسبابه، ولم يعدم وجود من زين له التوغل في حافات التاريخ البعيدة، من وعاظ السلاطين والمحسوبين على الثقافة والفكر.

وقد استغل الدكتاتور وقبيله ساحة التاريخ لتصفية حساباته مع من وضعهم في خانة أعدائه فحرف، وزين له مؤرخوه ما شاء لهم من التحريف للانتقاص من بعض الشعوب والمذاهب والقوميات وتهميشها والإزراء بها بعد تزييف الوقائع والحقائق، بحيث أصبح العراقيون العروفون بشغفهم بالقراءة في مجال التاريخ تحديداً يقرأون عن شخصيات تاريخية في ماضي العراق الغابر وتاريخه العربي الإسلامي وكأن شعارات البعث وأهدافه قد تشكلت قبل الطوفان! حتى بدت شخصيات تاريخية مثل سرجون وحمورابي وصلاح الدين أكثر بعثية من أجهل البعثيين أنفسهم، أعني بهم صدام حسين نفسه، وترسخت التقاليد الكتابية هذه لتغدو مجالاً للتندر المثقفين والمتعلمين والقراء الذين كانوا يقتنون المطبوعات الصادرة خارج العراق في المعارض القليلة التي أقيمت في مناسبات بعينها وصفت بأنها (تاريخية) كولادة صدام للشؤومة واعتلائه السلطة وما إلى ذلك. وفي المقابل كانت الكتب ذات الصبغة التزييفية التي رصدت لطباعتها مبالغ هائلة تنام على رفوفها بصمت وتعاد إلى مخازنها كاملة بعد انتهاء كل معرض لتسبب في جرح بالغ للقائمين على إقامة هذه المعارض.

وفي أوج التطهير العرقي على ساحات التاريخ فوجئ أهالي الأعظمية يوماً وهم يؤمون مسجد الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان (وهو من أصل فارسي) بأن للأثور النبوي النفذ على ضريحه بحروف بارزة: (لو أن هذا الدين كان في الثريا لناله قوم من فارس) قد أزيل تماماً. وتورط للخرج المصري العروف أبو سيف في إخراج فلم عن معركة القادسية التاريخية برؤية تحريفية بحيث أن القائمين على تنظيم مهرجان لندن السينمائي العالمي رفضوا عرضه في برنامجهم لأنه عنصري، ولا ننسى الفضيحة التي أثارها للخرج المصري للقل في أعماله شادي عبد السلام الذي قال بالحرف الواحد: إن نظاماً عربياً (لا أشك البتة بأنه نظام صدام) عرض عليه تحمل التكاليف الباهظة لإنتاج فلمه الكبير (إخناتون) الذي قضى سنوات طويلة في جمع للعلومات التاريخية عنه من كل للصادر وباللغات جميعاً، بشرط واحد هو أن يغير سيناريو الفلم بحيث يظهر ذلك الفرعون عربياً! الأمر الذي رفضه عبد السلام رفضاً قاطعاً مزوجاً بالسخرية.

أدى هذا النهج إلى تشكيل حالة من الشك للتأصل في نحن للتلقي العراقي، قارئاً ومشاهداً ومستمعاً، قل نظيرها في التاريخ، وغذا هذا الشك عشرات الكتب للغرضة التي صدرت خلال مدة الربع قرن الأخير، والتي تعاملت مع التاريخ بانتقائية واضحة، وأخذ للحسوبون على المؤرخين يجمعون جزيئات متفرقة من تاريخ ينساب متواصلاً ثم ينظمونها بمكر وخبث لتدلل على أوهام مسبقة لا يمكنها أن تتساوق مع حركة التاريخ. وإمعاناً في التشويه نقلوا مفاهيم معاصرة وطبقوها بتعسف أعمى على مراحل تاريخية بعيدة، بحيث غدت حلقات التاريخ للتعاقبة تدور في فلك واحد دورة غبية متكررة لا توجد إلا في أذهان هؤلاء، الذين كانوا يلوون عنق الحقيقة ويتعسفون بالتأويل ويجمعون ما لا يجمع. لتتحول الكتابة التاريخية على أيديهم إلى لعبة صبيانية لا يشكل نتاجها سوى مصادرة للعقل ونسف لكل الأسس للنطقية التي يقوم عليها فن كتابة التاريخ.

إن التزييف والتحريف للتعمدين، وتغييب الحقائق والإنتقائية شكلت العناصر الرئيسة في ما سمي: إعادة كتابة التاريخ، وأنكر في هذا السياق أن السيد عبد الرزاق الحسني سئل وهو على فراش الموت عن أسباب عدم استمراره في تدوين تاريخ الوزارات العراقية في العهود الجمهورية، فقال ما معناه: ومن أين لي بالوثائق التي هي مادة المؤرخ؟ ثم قال مقارناً: في العهد الملكي كانت وزارة الداخلية تصدر بياناً عند حدوث مشاجرة بين حمالين في سوق الشورجة، أما في العهود الجمهورية فإن وزارات تقال ويعدم رؤساؤها ويسلحون في الشوارع ولا تصدر أية جهة رسمية بياناً يوضح حقيقة ما جرى؟ ولكتفى الحسني بهذا سبباً.

وإذا أردنا أن نصحح هذه الأوهام التي نتجت عن هذا التشويه للقصود لتاريخ العراق والعرب والمنطقة، فما علينا سوى أن نعيد كتابة التاريخ مرة أخرى، وأن نتحرى من جديد لحقائق الناصعة لكتابة تاريخية تستهدف أولاً عقل الإنسان قبل أن تستهدف قلبه، وأن نبني الاستقراء التاريخي على أسس علمية رصينة قائمة على دراسة الوقائع والأحداث واستقائها من مصادرها الرئيسة ومن ثم تحليلها بعقل متفتح مرن يقبل بالنتائج مهما كانت. ولنا للثال النموذج في تجارب عديد من للؤرخين العراقيين الحقيقيين الذين كانوا في أوج ذلك التشويه يعملون بصمت وينجزون عشرات الشاريع والكتب للهمة التي تتلهف إليها للكتبة العراقية والعربية الآن. وإن مؤرخاً كبيراً كجواد علي رفض علناً أن يشترك في كتابة (موسوعة حضارة العراق) للغرضة في أهدافها ومثيلاتها في الثمانينيات نموذج مشرق للمؤرخ العراقي للنتج، برغم أن إطروحة الدكتوراه التي تقدم بها لإحدى الجامعات الألمانية وناقشها قبل انهيار ألمانيا في الحرب العالمية الثانية والموسومة بـ (الهدي وسفراؤه الأربعة) ما زالت غير مطبوعة إلى الآن، لأن مثل هذا الموضوع محرم على المؤرخ العراقي تناوله، وكذلك موسوعته (تاريخ العرب في الإسلام) المؤلفة من عشرة مجلدات ما زالت مهددة بالزوال ما لم يسرع المثقفون على الحقيقة إلى طبعها.

أما أولئك الذين أسهموا في التشويه والتحريف بقصد أو بغير قصد من الضللين والضللين (باسم الفاعل والمفعول) فمن الواجب تقديم نموذج الكتابة التاريخية الصحيحة لهم، ليدركوا بأنفسهم بشاعة ما أسهموا به، كما يعيدوا النظر فيما روجوه من كتب لم تغادر أصلاً رفوف النسيان إلا في أضيق نطاق. وقبل هذا، وفي أولويات ما لابد أن يغير الآن: مناهج دراسة التاريخ في كل للراحل، لكي لا يتخرج في جامعاتنا شباب معاقون عقلياً.

> .. وكيف لا تتلفت أو تنقى وأنت تكتب الآن؟ فأنت والوطن معاً في مفترق طرق.. ولا غرابة! فلم تكن منذ أشعل فيك الوعي حب الحياة والجمال والخير إلا كلمة في كتاب الوطن مثلما لم يعد الوطن بالنسبة إليك مكاناً، إذ صار فيك حلماً ومنهج عمل ومواقف. وصار مرجعاً وأناساً، قل مبدأ ومعاداً.

من شهادة المنفى داخل الوطن

قاسم عبد الأمير عجام

نعم، كانت القراءة بابك إلى وهج الوعي. ولكنها لم تبق مجرد هوى ومتعة تحليق في سماء الأدب وإنما اقترنت بتغيير صاخب يحرث في حاضر الوطن ويعيد إليه ماضيه متروءاً بعيون جديدة، فكانت متعة الأدب وسمو التحليق بين كواكبه أن يضعك بين الناس ومفردات التغيير وبينها وبين الحلم القديم بحياة يسيرة. فتلك كانت أيام ثورة 14 تموز 1958 التي أوقدت الوعي فيك.

من كان يتخيل أن ذلك سيكون ننيا بل خطيئة تستحق السجن والعزل؟ ومن قال إن الحلم الجميل سيكون دليلاً حرفياً؟؟ لكنه حدث. وهاديك البعثيون إلى السجن فتياً تحتشد في صدرك الأحلام ومشروعات تأتلق فيها مدارس وبيوتاً جميلة تزدان بثمار من الفن وعلوم تيسر للإنسان حياته! ورأيت دهشتك وخوفك يتراجعان أمام هيبة العلماء وأعلام الفكر ممن سمعت بهم أو قرأت أعمالهم وهم يخطون معك على قاع السجن ذاته! فاصغ إليهم، وتعلم! والأهم أن تدرك أن الثقافة التي تريد لا يريدها آخرون بل لهم ليذبحون من يسعى لنشرها وعليك أن تختار!.

كبيراً كان ذلك الاختيار وقاسياً بالنسبة لشاب لم يناهز العشرين بل كان للمراهقة أقرب.. غير أنك اخترته. بعزم اختلط في تكوين عوامله فكر سياسي جديد وجد في تربيتك الدينية مهاداً لقيم العدل والحبة، اخترت أن تحتمل السجن وما سيتبعه. وكان عليك فيما بعد أن تعاني العزل عن كل ما تستحق أو ما تؤهلك إليه قدراتك.. عزل بين محطتي سجن وعزل بعدهما! تتفوق في الدراسة فلا تجد موقعك الذي يحق للمتفوقين أن يبلغوه. وتبدع في عملك فلا تتقدم إلى مراكز التأثير. فأنت لم تستسلم لهرولة التطبيع الصاخب.. والأنكى من ذلك أنك تتحدث هنا وهناك بما كان يجب أن يكون! وإنك تنشر الخطر من حولك حين تؤاخذ عملاً فنياً لم تجد فيه ما تأمله للناس من متعة رقية أو غنى فكري!! فاحمد الله على أن طوقوك بعيونهم وقواعد محرماتهم، وكان سهلاً أن يقبروك!!

حسناً، فأعمل. وكل يعمل على شاكلته.. لكن السار يزداد شوكاً فأنت تزداد معرفة وهم يوغلون تجهيلاً. وأنت تعمل باذلاً سخياً للجهد العقلي والعضلي كي تكون معرفتك كلمة هادية أو خطة عمل منتج، وهم يحتضنون الذين يعملون وعيونهم على منفعة يقبضونها!! أنت توغل مضياً إلى ليل غربتك يا هذا! ولقد اخترتها واستأنست بغربائها عظام سيموك على طريق الأشواك. بل وكنت تنشغل عن هرج النافع من حولك بإصداء للحاورات للمتدة عبر الزمن أو تلك النبثقة من حاضر لم تغترب عن وقائعه وإن كنت تقرؤها بوعي مختلف، وتلك قاعدة للنفى داخل الوطن.

نعم، صار الحزن يترسب في القلب، فالوطن يغادر مبتعداً عما حلمت له ولأهله من حياة بل قل كان يغرق في بحر مفاجآت وكان الوح يلقي بك بين هذه النوبة أو تلك من نوبات الاضطراب.

فإن حاربوا فعليك أن تحارب معهم! ولا معنى بل لاحق لك في أن ترى في حربهم رأياً. وإن احتملت السجن ورأيت فيه بابا نفذت منه إلى مزيد من وعي فماذا ستحمل لحرب إليك؟ بطالة أو ظالة كانت هذه الحرب أو (عادلة) فأنت تخوضها. تخوضها لأنها لا عنا كلما ألقت إليك بحزن أو فاجعة بعزيز.. وتخوضها محللاً دارساً يحرقك الدرس والعواقب للنذرة بالخراب! فتخوض نار أحزان العصف الذي يصادر مستقبل الوطن بعد أن أدمن مصادرة الحياة والحرية! تزداد الحرائق اشتعالاً فيزداد الخراب سعيراً. ويمتد مجرى الدم متسعاً فيجد للناقمون فيه مداداً لأقلام صارت تقطر نهباً. وعلى قلمك أن يختار! ويلاه.. أية حياة هذه؟ أن تفقدها أو أن تمضيها صبراً أو اختياراً؟ فأما أن تغمس القلم بدم النفاق والنافع وأما أن تصمت! وويل لك! فلقد جنيت على نفسك إذ صرت كاتباً معروفاً وإذ تصمت فأنت ترفض! حسناً فليكن وهو أضعف الإيمان! غير أنه موجع هو الآخر وإن اختلفت مواجعه عن مجد الرافضين الناطقين. ويتحول الصمت كمداً أو نحيباً وأنت تشهد عرس الكذب مقاماً في الساحات والصحف والمكاتب والإذاعات. فالقهر يسمى تحولاً عميقاً! والقتل اليومي الذي لم يعد موضوع التهامسين صار اسمه يقظة تمنع العدو من هدفه! وصار اللصوص قادة الإدارة والاقتصاد. والوطن بقرة أنهكها الحلب في أوعيتهم لكن ذلك مجد القيادة التاريخية وتفردها! وأنت - سامحك الله - ما زلت تمسك بخشبة الحلم بدنيا نظيفة ومدينة جميلة حتى لتسأل نفسك ما هذا؟ أمكابرة ترسخت فيك عبر الصبر والقبض على جمر العزل والحرمان أم إيماناً تجذر في الروح والقلب بأن الغد قادم بمعول يهدم ما شادوا؟ لكنك، بين مكابر أو مؤمن، بقيت تردد بالا حلام من مهنة شاقة!! لعلك وقد سقطوا بكل الخزي الذي كان فيهم، ما زلت لا تدري كيف استمر ذلك الحلم وأنت مطوق بحكايات الذين اختفوا على حين غرة ولم يعد أحد منهم بخبر! وكيف بقيت تراباً بنفسك وغربتك تشتد وحشة حتى ليتساءل الفرد الحاصر في داخلك أتكون أنت وحدك الواعي والكل من حولك عن الوعي غيب؟؟ فالشعر يدق طبوله للقائد الخالد والشجرة الطاهرة التي تزهر بمن حوله! والكتاب يبحثون في غرائبه وحروبه وقتلاه ليأتونا بامجاد تعليه على البشر! والجماعة تنشغل بصمته ونطقه، والناس في تدافع على الغانم والفتات الوعود!! فكيف كنت تصدق إنك والقلة الذين تأوي إليهم بهمومك الجريحة على صواب لتستمر قابضاً على جمر العزلة مقيماً على شوك الكابرة؟.. أقليس هو النفى داخل الوطن؟

لا شيء - وتقولها الآن عالي الصوت - كالثقافة للرتبطة بالناس عاصماً من الاغتراب الهزوم. ولا شيء - وتقولها الآن واثقاً - كالإيمان بفكر سياسي منحاز للعدل الاجتماعي درعاً دون السقوط على موائد التكسب ونذل الارتزاق بالكلمة.

وماذا يعني أن يحرموك من دراسة عليا كنت تطمح إليها ما دمت تستطيع بلوغ ثمرها بمجاورة مكتبتك؟ وماذا لو احتملت حرمانك من عطايا زائلة ما دمت تجد شراء أيتعالى في داخلك ويعلو بك عليهم وهم يلعقون العتبات والأقدام!

ولقد احتملت، ولكنهم أوغلوا فيما لا يحتمل.. فلم يعد حرمانك أو تجاهلك في منفاك هو الموضوع، فقد ركبوا لجحار حصاناً يغيرون به على الناس تجويعاً وإذلالاً وابتزازاً. وتهاوى كثير ممن تحب أو تسحبوا إلى دواخلهم فيما يشبه نحولاً هو إلى اليأس والا مبالاة أقرب! بينما از دار كب للنتفعين ازدحاماً، واستداداً. فهو موكب مزدحم بالناكب والأقدام، وكل تتعلق عيونه بكيس السلطان. فكنت إذا تحولت عن مسلحي الحزب الذين يطاردون الناس لسوقهم إلى حروب القائد الفذ داهمتك أعمدة القصائد وسطور للدائح بما لم يقله شعراء الخلافة في أروقة لياليهم وأبهاء نهارهم. وأن تزويت محزوناً طار ذلك الكتابات التي تذرعت بالتحديث كي تتهرب من لحظة للواجهة، فما كنت تدري ما يراد بذلك الصمت الثرثار.. أهروباً أم تهرباً كان أم هو الخواء الذي لا بد أن يسود؟ لكنه مهما حاول لن تجد فيه سوى صمت الخواء أو ضجة النضاق، فإن تحطاط الدرس الجامعي أبلغ من كل أعمدة القصائد ولخط الأروقة وسطور التعالم. وإن خراب مدارس الصغار وتسربهم إلى الأسواق وورشات الحرف هو الإعلان لحق عن السار الذي تقود إليه حمى الحروب وإعلاء القصور وهياكل تمجيد السلطان. وإن اتساع تلال القمامة في شوارع مدننا هو لهوية الصارخة بتطبيقات ذلك السار.

فأنت منفي منفي إلى ما هو أشد غربة من منفى أخيك وأصدقائك.. صمتك منفى وكتابتك ترنح في حقل ألغام. وفقرك سوط السلطة ومكابرتك عقابها الذي لن تبرحه. وحيثما ذهبت فأنت تضطرب في القلاة نفسها. ولو تأملت فيما يتاح لبغداد (الحاصرة) من نور وبناء وبهارج بينما تجلد بلدتك ومدن وطنك بالظلام والقامة والكواتم القصب أو كتل الطين لكفاك حرقة. فما بين بغداد وبين شوارع الحلة هو الذي بينك وبين أهل النفاق والولاة.. يريدون عيش القمة لهم ولك موت الخرائب! ولا تعترض، فلم تكن تلك إرادتك؟ حسناً فتلك هي قسمة الحزب الطليعي! ومن قسمته أن يستدعيك الجلاد في ليل أو نهار إلى قبو من قبوية السلطة التي يسمونها دوائر الأمن والخابرات لتبقى وأسرتك على كف عفريت! فكم استدعاء كان هو الخطوة الأولى إلى للجهول الذي صار معلوماً إسمه القابر الجماعية!

وكم استحضرت وأنت في الطريق صورة أصدقائك الذين اختفوا أو غيبوا وراء ذلك للجهول! وكم اضطربت تحت ذلك السيف وأنت ما زلت تمارس أحلاماً مجنونة ومكابرة خطرة؟

أجل.. فلقد رحت تلعب لعبة خطرة حين تكتب في نقد الأدب أو نقد الفن فتدس بين سطورك معنى خفياً وتمد بين كلماتك ظلاً لا تمنحك إحساساً بالحاولة وممارسة القول الحق. وتختار كتاباً تتوفى عرضه في جريدة أو مجلة. فتقف عند بعض من فصوله أو فقراته لتشير من خلالها إلى ما تتأولونها من معان تحمل شيئاً من رسالتك! إنها بعض تجليات لعبة القط والفار أو بعض آهات منفاك داخل الوطن الذبيح!

اللهم فاشهد، لقد احتملنا ليل صدام وكنا كابر. واحتملنا حرسه الفاشي في عملنا وقولنا. اللهم واشهد أن سياط مداحيه وطعناتك أجناده وجزمات (رفاقه) كانت هي التي تختطف العراق من أهله وتلقي بنا في مهاوي التمزق ودهاليز الخاوف فنلوذ بأوار هذا تارة وبهمسنا وراء الأبواب تارة، حتى إذا بلغنا ساحة الفردوس كنا قد سلخنا العمر صبراً.

اللهم شهد الدنا الآن بين الجرح والجرح نتداول ما كان وما يجب أن يكون فنقول للذين تفرجوا على جروحنا ومنافينا وأكداس جثثنا الغيبة أن دعونا وشأننا يرحمكم الله. ونقول لأنفسنا أن تأملوا جيداً لتكسبوا الدرس فذي لحظة الصارحة، فأما انفتاح على بعضنا ومشاركة بالعقل والحبة لنغنم الحرية وأما ظلمة قادمة. غير إننا، وحق السماء والأرض، مللنا النافي وغربة الصادرة ولذا جئنا نشهد على ذلك وإن لسعتنا جروحنا ونحن نشهد.

شيكسبير إيطاليا كارلو غولدوني

جذور المسرح الحديث في الكوميديا المرتجلة

> ظل الكاتب والمثل المسرحي الايطالي كارلو غولدوني مثيراً للجدل على مدى اكثر من قرنين، ومع ان اعماله المسرحية تنتمي الى الكوميديا الارتجالية الا انها كانت مختلفة وغنية بمفاهيم وافكار وجدت طريقها الى المسرح الحديث بعد زمن طويل من انطلاقها، ولم تكتمل اعادة اكتشاف هذا المبدع الذي عاش في القرن الثامن عشر (1707-1793) الا في النصف الثاني من القرن العشرين مع ان صديقه الفيلسوف الفرنسي فولتير اطلق عليه لقب (موليير الايطالي) بينما اطلق عليه نقاد آخرون

بندر عبد الحميد

بين فينيسيا وباريس

عاش غولدوني في مدينة فينيسيا التي احبها وابدع فيها اهم اعماله قبل ان يغادرها مهاجراً الى باريس، ليعيش هناك ثلاثين عاماً، ثم يموت فيها فقير أاعمى، بعد ان عصفت الثورة الفرنسية باحلامه وتقطع عن عمله الذي يدر عليه مورداً ضئيلاً، فعاد الى العانة المريرة التي كانت سبباً في هجرته من فينيسيا.

البدايات الاولى

كتب غولدوني اول مسرحياته وهو في الثامنة عشرة من عمره، وبعدها صار المسرح يشكل له كل احلام الحياة، فكان مولعاً بالمثلات اللواتي يحملن معهن عبق المسرح، فهرب من مدرسة الدومينيكان في ريميني ليرافق مجموعة من الممثلين والمثلات الى مدينة كيوجيا التي كتب عنها مسرحية فيما بعد، وهذه الحادثة تذكرنا بحادثة جرت بعد قرنين من الزمن، في مدينة ريميني نفسها، حيث هرب فدريكو فيليني في طفولته، من النزل ليرافق فرقة السيرك التي كانت في للدينة في بداية ولعه الطفولي بالسيرك والرسم ثم السينما، قبل ان يتحول الى احد كبار صانعيها.

نزع الاقنعة

مع ان غولدوني كان يعتبر كاتباً تقليدياً، وتعتبر الكوميديا الرتجلة نوعاً من مسرح التسلية، الا ان غولدوني كان مختلفاً، ويأتي اختلافه من اهتمامه التلقائي بتحليل شخصياته اولاً، وبتحليل الاحداث ثانياً.

يقول مارك توين عن غولدوني، انه الانسان الذي يتمنى كل شخص ان يكون قارئاً لأعماله، ولكن القلائل هم الذين قرأوه فعلاً...

وجاءت عملية اعادة اكتشاف غولدوني من خلال اعادة قراءته على ضوء الاحداث التي تجري بعد اكثر من مئتي عام من وفاته، وعلاقة اعماله بهذه الاحداث فاذا نزعنا القناعة التي كانت ملوقة في الكوميديا الرتجلة وقد نزع غولدوني بعضها في اعماله فاننا نكتشف نزعة التجديد في تحركات المسرحية، وفي الشخصيات والتشخيصات التي تنتمي الى عالم اليوم في المسرح الحديث، باتجاهاته الختلفة.

الحقيقة العارية

يقول غولدوني، بأنه من اطار جميل وغريب وجديد، بالنسبة الي من الشخصيات الاصلية والحقيقية التي ادرسها بعناية، واحاول ان اجعل منها مادة من مواد عملي العادي.

ويقول في مسرحية (نكريات)، (لقد طورت هواية مراقبة الرجال في الاحياء القريبة مني).. (وأنا مقتنع بانني احترم جمهوري من خلال تقديم الحقيقة العارية له خالية من الزخرفة) ويضيف الى مزاياه الخاصة استمتاعه بالشغل في كل شيء وعدم اصدار أيه احكام مسبقة.

ويمكن اعتبار التجديدات التي وضعها غولدوني نقطة انطلاق للمسرح العالمي الحديث، ومنها حبه الفضولي للمراقبة، وترسيم الحالات النفسية لشخوصه واستقراء الدوافع الكامنة وراء سلوكهم في واقعهم الاجتماعي والثقافي والستويات والاتجاهات الفكرية التي يعيشونها، وهذا يحتاج الى المزاوجة بين المسرح والحياة، او يمكن ان نسميه (فن الحياة مسرحيا)، او الحياة في المسرح بمعنى (مسرح الحياة).

مسرح الطبيعة

كانت فينيسيا هي الرمزية لغولدوني، بكل ما فيها من اوهام واقنعة وتعويذات سحرية، فهي مدينة خاصة جداً، بشوارعها المائية التي تعطيها صفة للدينة البحرية الختلفة، فهي تتواصل مع نفسها ومع العالم عن طريق البحر وهذا ما انعكس على الحياة الاجتماعية واللهجة والتقاليد اليومية والاحتفالية فيها فاللهجة الفينيسية مشحونة بطاقة تعبيرية عالية وهذا ما ساهم في انتعاش مسرح (خيال الظل) الذي يرقد جذور الواقعية في المسرح العالمي، ويلتقي مع واقعية غولدوني الذي يعتبره دعاة لحركات التنويرية في القرن الثامن عشر رائداً لمسرح الطبيعة، كما يشير الى فولتير في اطرافه لمسرح غولدوني،

(ان الطبيعة عالية وهي ارضية صلبة لاولئك الذين يرصدونها، ومن هنا فان هذا الفن الشعري المسرحي العظيم متمسك بالطبيعة ولا يمكن ان يرخي قبضته عنها..) ومع العواطف الحقيقية، وبلغة يفهمها كل الناس ويدركونها ولم يكن غولدوني يبتعد عن الحقيقة، ولم يتخل عن الطبيعة أبداً، فالصيادون والنساء الشعبيات هم جزء حي من هذه الطبيعة التي تحمل معها العادات والتقاليد والحس النقدي الاجتماعي.

غرائب غولدوني

وقد نتساءل، كيف استطاع غولدوني كتابة نحو مئة وثلاثين من الاعمال المسرحية الختلفة، من الكوميديا او التراجيديا والأوبرا الى الاعمال الغنائية والذكرات..؟!

وكيف كان يعمل محامياً في النهار ويكتب فناً في الليل، ثم يتسرب بعدها الى الحانات والابواب الخلفية للمسرح او يقبع بين طاولات القمار لخضراء حتى مطلع الفجر ثم يكتب مواعظه لحكيمة الى جمهوره وقرائه في مطلع مسرحياته كأنه ناسك ورع وحكيم؟

ان تجديداته الذكية تشبه الاضافات الشعبية الى السيرة الذاتية للقديسين، حينما تتجاوز الألوف، وتضع الناس امام ارباك في بحثهم عن الحقيقة.

غوايات خاصة

نشر الشاعر الايطالي روفيلي كتاباً موثوقاً مثيراً بعنوان:

(حياة حب وغرائب كارلو غولدوني) يؤكد فيه ان غولدوني كان يتعلم بسرعة البرق، وبالاضافة الى شغفه بالمسرح ظل مشدوداً الى علاقات غرامية بسيطة وبريئة، فقد ظل طيلة حياته مخلصاً لزوجته نيكوليتا التي شاركته حياة التاعب،

(لم يكن غولدوني انيقاً، وهذا ما تذكره جميع النساء اللواتي عرفنه بكثير من الرقة والامتنان ومنهن كونتسات وخادمات وفتيات يافعات..).

كان من الممكن ان تنحرف حياة غولدوني في اتجاه آخر، بعيداً عن المسرح فقد دفعته رغبته بالعمل الدبلوماسي الى وظيفة قنصل لجمهورية جنوا في فينيسيا ولكنه تحسب من هذا العمل في الوقت الناسب، حينما وجد نفسه مضطراً الى استنجار سفاح مغامر لتنفيذ جريمة سياسية.

الغامر النبيل

آخر الكتب التي صدرت عن غولدوني كان للكاتب إدوارد دو بيرتاني وهو يلخص حياة غولدوني واعماله بشكل دقيق، انه رجل محب ومبدئي، ولكنه ببساطة ليس ابن عصره، انه متلهف للجانبية الانثوية والاطعمة الجيدة، ويتوخى الدقة في عمله، انه مغامر نبيل، عاش بسرعة، وكتب بسرعة، وكان مضطراً ان يحترم عقوداً غير محترمة، بسبب حاجته الى الكتابة والال، انه رحالة يحب السفر منذ الخامسة عشرة من عمره، عندما اتجه الى روما مع والده جيوليو الذي كان طبيباً بدون شهادة رسمية.

منة وجه للحياة

كان غولدوني صديقاً لعدد كبير من الوسيقيين مثل فيفالدي وغالوبي وعدداً آخر من الكتاب والفلاسفة أمثال فولتير وجان جاك روسو، شهد عصر العظمة والهانة لقصر فرساي في عهد لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر، تعرض لأذى كبير بعد ان كسب رهانا وتحدياً بكتابة ست عشرة مسرحية في عام واحد، وكانت تنتابه نوبات من الكآبة التي لا يعلم بها أحد، او تمر به فترات من الكسل واللا مبالاة وعندما تقدم به العمر عاش مكرماً ومدمراً في الوقت نفسه، فقد عاش منة وجه لحياته التي امتزجت بالسرح، ويمكننا ان نقتبس عبارة جاءت على لسان احد شخوصه "جوليمو" في مسرحية (الغامر الذي استحق التكريم)

يقول فيها، اريد ان امتع نفسي، لا اريد التاعب، اريد ان اكون قادر أعلى الضحك من كل شيء، وتذكر فوق هذا حكمة معروفة تقول،

ان الانسان الروحاني يجب ان يرتفع فوق كل ضربات القدر.

امام مرآة المسرح

يبدو ان عدداً من اعمال غولدوني ومشروعاته غير متكاملة قد ضاعت لكن اهم اعماله للعروفة هي، الرجل للكتمل، للسرف، الافلاس، ابن ارلوكان للقتود والستعار، خادم سيدين، النساء الرحمات، ضجة في كيوجيا، الارملة الذكرة، الضيفة الجميلة، ضيف من حجر، ارلوكان ساحراً، صاحبة الفندق، الغلطاء، مدير مسرح في ازمير، الفتاة الفاضلة، الروحة، الاقطاعي، العاشق العسكري، ثلاثية الصيف (حمى الاصطياف- مغامرة الاصطياف- العودة من الاصطياف) ومذكرات للهني، الزوجة الصالحة.. وقد كان التنوع في موضوعات هذه الاعمال يوازي التنوع في موضوعات لحياة اليومية خارج المسرح.

اكتشاف التخفي

كانت الخطوات الاولى لاعادة اكتشاف غولدوني قد بدأت في نهاية الخمسينيات من القرن العشرين مع صعود الواقعية الجديدة، في السينما والسرح في ايطاليا ولكنها أخذت شكلاً أكثر عمقاً واتساعاً في الاحتفالات بالسنوية الثانية لوفاة غولدوني والتي تركزت في فينيسيا وروما في شتاء عام (1993)، وانتشرت في اكثر الدول الاوربية والعواصم العالمية، وضمت مؤتمراً لوزراء شؤون الثقافة الاوربية ونشاطات مسرحية وسينمائية وموسيقية وقرارات باعادة ترجمة وطباعة اعمال غولدوني والدراسات الستجدة عنها، مع اصدار مطبوعة شهرية على مدى عشر سنوات، خاصة باعمال غولدوني، وتشكلت لجنة في فرنسا لترجمة اربعين مسرحية مختارة من مسرحياته، وقال الكاتب السرحي والناقد الايطالي اوغور أنطاني السكرتير الفني العام للاحتفال، في هذا اليوم بالذات تم الكشف "عن غولدوني التخفي" ومعرفة اعماله بحيوية بالغة وتذوق جيد.